إسهام عالمى لثورة 25 يناير رغم أنف خصومها!

لم تقدم مصر إسهاماً يُعتد به فى العالم ويضيف جديداً إلى البشرية منذ عقود. وعندما احتفل العالم بثورة 25 يناير واعتبرها إسهاماً ديمقراطياً كبيراً، استكثر خصومها علينا ذلك وبذلوا أقصى جهدهم لتشويهها والإساءة إليها، ومازالوا يبذلون.

فالثورة، التى قدم فيها المصريون نموذجا مبهرا حبس أنفاس العالم على مدى 18 يوماً، ليست من صنع شعبنا بل هى «صناعة صربية» وفقاً لمزاعم بعض خصومها، أو «فعل استخباراتى» كما يدعى بعض آخر أو «عمل تآمرى» لدى فريق ثالث منهم.

غير أن الإساءة إلى الثورة والحملات المنظمة على بعض شبابها، سعياً إلى تشويهها، لن تنال منها أو تقلل إسهامها التاريخى الكبير فى تطوير نظرية الجماهير الثائرة وفلسفة التجمعات الشعبية الحاشدة.

فقد اشتد الخلاف خلال القرن الماضى بشأن طريقة النظر إلى هذه التجمعات بين من اعتبروها نقلة كبرى إلى عصر الجماهير التى تستطيع تحقيق الإرادة الشعبية، ومن لم يروا فيها إلا هيجانا جماعيا و«قطعاناً» يتلاعب بها زعيم ما ويستخدمها لفرض إرادته. وحدثت عشرات الحوارات والمناظرات الكبرى بين الفريقين فى القرن الماضى، من أشهرها ما دار بين كاتبين أمريكيين معروفين عالميا أحدهما صحفى مخضرم هو والتر ليبمان والثانى فيلسوف مهم هو جون ديوى. وقد بدأ ذلك النقاش بكتاب ليبمان المعنون «الجمهور الشبح» الذى قام على فكرة

أن الجمهور ليس له وجود حقيقى، وأنه شبح يُخترع فى ظرف معين ويتلاعب به زعيم أو حزب لتحقيق أهدافه.

لم يكن غريباً، ونحن إزاء موجة عالمية بالفعل، أن تتشابه التظاهرات فى هذه الدول من حيث أساليب تنظيمها.

كان موقف ديوى، وأمثاله الذين دافعوا عن التجمعات الشعبية واعتبروها بداية عصر الجماهير، ضعيفاً لأن خبرة القرن العشرين حتى عقده الأخير لم تدعم أطروحاتهم. ولذلك لجأوا إلى الدفاع عن الحشود الجماهيرية وإلقاء اللوم على من يتلاعبون بها فى الوقت نفسه. فكانت مشاهد الجماهير التى تحتشد رافعة عقيرتها بالهتاف والتهليل لطغاة مثل موسولينى وهتلر وستالين وفرانكو هى الغالبة. لكن الجماهير التى احتشدت فى ثورة 25 يناير صنعت مشهداً مختلفاً. فلم تهتف لزعيم أو لحزب بل للخبز والحرية والكرامة والعدالة الاجتماعية، وضد الاستغلال والاستبداد والفساد والظلم.

صحيح أن تغييرا كان قد بدأ فى هذا الاتجاه منذ الانتفاضات والثورات التى أزاحت النظم الشمولية والعسكرية فى شرق ووسط أوروبا وأمريكا اللاتينية فى تسعينات القرن الماضى، ولكنها كانت بداية التحول التاريخى الذى رسخته ثورة 25 يناير، حيث حسمت الخلاف بشأن نظرية الجماهير الثائرة، ودعمت الاتجاه الذى يرى أن عصراً جديداً يبزغ يمكن تسميته عصر ديمقراطية المواطنين.

وقد حفلت السنوات الثلاث منذ اندلاع ثورة 25 يناير بما يؤكد أننا إزاء موجة ديمقراطية عالمية جديدة أكثر عمقا من ديمقراطية الصناديق، وشهد عام 2013 توسعاً إضافياً لهذه الموجة فى مختلف أنحاء العالم من

سنغافورة التى كانت مستقرة إلى درجة الملل وحتى البرازيل التى حقق رئيسها السابق لولا داسيلفا ما يشبه المعجزة. فلم تخل أى من قارات العالم من تظاهرات تجسّد الموجة الديمقراطية الجديدة فى العام المنصرم. وإذا كان هذا العام انتهى بينما هناك أتراك وأوكرانيون وتايلانديون فى الشوارع، فقد شهد فى فترات مختلفة منه تظاهرات حاشدة وأخرى متوسطة فى أكثر من عشر دول أبرزها إيطاليا وروسيا، بخلاف بلادنا العربية التى سجلت معدلات قياسية من حيث حضورها للمرة الأولى فى بداية موجة ديمقراطية عالمية جديدة. وانضمت السودان إلى هذه الموجة عام 2013.

ولم يكن غريباً، ونحن إزاء موجة عالمية بالفعل، أن تتشابه التظاهرات فى هذه الدول من حيث أساليب تنظيمها واستخدام وسائل التواصل الإلكترونية فى الإعداد لها، وطريقة ترديد الهتافات فيها، وحتى فى الشعارات التى رُفعت بدرجة أو بأخرى.

وسيسجل التاريخ لشعبنا إسهامه البارز فى هذه الموجة المعبرة عن تنامى دور المواطن الفرد فى الشأن العام، وتطلعه إلى المشاركة فى إدارة بلاده، وأمله فى أن يكون حاضراً فى عملية صنع القرار التى مازالت تتجاهله حتى فى أكثر الدول حرية بعد أكثر من قرنين على ديمقراطية الانتخابات والبرلمانات والتمثيل النيابى. فطوبى لثورة 25 يناير فى ذكراها الثالثة رغم أنف خصومها.